العلم والسياسة

من تأمل في احوال الامم والاطوار التي يمرون عليها يرى كأنهم يسيرون في شكل لولبي فلا يبعدون عن نقطة الأعادوا فقاربوها بعد حين. وهذا ما حمل بعض العلماء على فرض الادوار ورد الحوادث كلها الى حكم الدور. يغنيك عن الاسهاب في هذا الموضوع اعتقاد الناس بالعلماء. فقد كان شانهم مرفوعاً عند الاقدمين وكلمتهم مسموعة عند ملوكهم ورؤسائهم حتى ادهم ليل الجهل فأهملوا واحتقروا او كفّروا وحرقوا. والآن قد دار الدور فنهض العلماء وبينوا فضل العلم وسيخضعون لسلطانه كل نظام بشري. وحسبنا شاهداً على ذلك خطبة رئيس المجمع العلمي البريطاني السر لبون بلينبر التي القاها في الاجتماع السنوي بمدينة ابردين في اوائل سبتمبر (ايلول) الماضي. وقد لخصنا بعض ما تضمنهُ من الفوائد آملين ان يتدبرها القراء ملياً ولا سيما رجال السياسة منهم فانها خطبة عالم مجرّب وسياسي محنّك

قال الخطيب بعد الديباجة لا يسعني الخطاب في هذه المدينة[1] ما لم اتذكر انهُ في آخر اجتماع اجتمعناهُ هنا كان رئيسنا[2] اميرًا خطيرًا نهابهُ لعلو مقامهِ ونحترمهُ ونجل شانهُ لحبهِ للانسانية وللعلوم والفنون التي تزدان الانسانية بها. وفي الرابع عشر من (سبتمبر) ايلول سنة ١٨٥٩ كنتُ ممن جلس يستمع بلاغة كلامهِ وحكمهُ وقد اتخذت الآن موضوع كلامي شذرةً من الشذور التي تلاها علينا حينئذٍ وهي قولهُ "سيزيد التفات الدولة الى العلم كما نرجو حتى لا يبقى العلم معتمدًا على احسان المحسنين بل يخاطب الدولة كما يخاطب الابن أمهُ واثقاً بحنوها ورغبتها في نجاحهِ. وستجد الدولة في العلم عنصرًا من عناصر قوتها ونجاحها". وبعد ان افاض الخطيب في هذا الشان قال

ان اليونان والعرب كانوا يعلمون لزوم العلم لنجاح الدولة ثم جهل الناس ذلك في القرون الوسطى فأهمل امر العلم حتى ان جرمانيا وفرنسا اللتين تسابقان الآن في عضد العلوم لم تعترفا بلزومها الا من عهد قريب فانهُ لما حكم على العلّامة لافوازيه بالقتل في ايام الثورة الفرنسوية رفع بعضهم عريضة الى رؤساء الاحكام يطلب بها ان يُفسَح في اجلهِ بضعة اسابيع ريثما نتم بعض الامتحانات العلمية التي كان شارعًا فيها. فكان جوابهم "ان الجمهورية لني غنى عن العلماء" وفي

(١) ان المجمع العلمي البريطاني يعقد اجتماعهُ السنوي في اماكن مختلفة في السنة الماضية عقدهُ في مدينة منشستر بامر كوعقده السنة في مدينة ابردين

(٢) البرنس البرت الخرفي زوج ملكة الانكليز

اوائل القرن الماضي نادى فردرك وليم ملك بروسيا في مدرسة فرنكفورت الجامعة شباباً بقوله "ان اوقية من الذكاء الفطري خيرٌ من قنطار من العلم المدرسي" اما الآن ففرنسا وجرمانيا تخجلان من مثل هذا القول وتجربان على ضده. ويظهر اجتهاد بعض الدول في ترقية العلوم ونشرها من ان الولايات المتحدة الاميركية الحديثة النشأة وقفت على ترقية العلوم مئة وخمسين مليون فدان من اراضيها الزراعية. ووزير زراعتها محاط بجم من النباتيين والكيماويين. وقد اخذنا الآن ننهم ما قاله وشنطون في خطابه الوداعي لبلاده وهو "أحثكم اهل المراكز العلمية المحل الاول فان الحكومة التي تقصد الاعتماد على رعاياها يجب ان تهذب عقولهم قبل ذلك" ثم اخذ الخطيب يلوم الدولة الانكليزية على تقاضيها عن العلوم وعدم اقامتها وزارة مخصوصة للاهتمام بامرها فقال "ان كل الممالك العظيمة لها وزراء للمعارف ما عدا مملكة الانكليز ل هي في ذلك دون بلاد اليونان والبرتوغال ومصر[٢] واليابان. واستطرد الى لوم المدارس على صرفها اهتمامها الى اللغات الميتة وفنون الادب القديمة (الكلاسيك) واهمالها للعلوم الطبيعية وقال بلسان جمهور العلماء ان ذلك مصيبة وطنية وذكر حكاية السلطان الصيني الذي دعا خمس مئة عالم من اتباع كنفوشيوس ومنشيوس الى مدينة باكين ودفنهم احياء هم وكتبهم تخليصاً للبلاد من شر فنون الادب (الكلاسيك)

ثم التفت الى مساعدة الدول للمدارس الجامعة فقال ان دولة جرمانيا تنفق على المدرسة الواحدة مثل مدرسة ستراسبرج وليبسك اربعين الف ليرة انكليزية كل سنة وانها لما جددت مدرسة ستراسبرج ومكتبها انفقت عليها ٧١١ الف ليرة انكليزية فاقامت فيها داراً للكيمياء انفقت عليها ٢٥ الف ليرة انكليزية وداراً للطبيعيات انفقت عليها ٢٨ الف ليرة وداراً للنبات انفقت عليها ٣٦ الف ليرة ومرصداً انفقت عليه ٢٥ الف ليرة وداراً للتشريح انفقت عليها ٤٢ الف ليرة وداراً للجراحة انفقت عليها ٣٦ الف ليرة وداراً للفيسيولوجيا انفقت عليها ١٢ الفاً وتسع مئة ليرة وداراً للكيمياء والفسيولوجيا انفقت عليها ١٦ الف ليرة. ودولة بروسيا وهي اشد دول الارض اقتصاداً تنفق على المدارس الجامعة كل سنة ٢٩١ الف ليرة. واما دولة الانكليز فلا تنفق على مدارس ارلندا واسكتلندا الا ٦٠ الف ليرة

ثم قال ولما انتهت الحرب بين فرنسا وجرمانيا بحث مجمع فرنسا العلمي في هذه المسئلة وهي لماذا لم تجد فرنسا رجالاً مقتدرين وقت الشدة. فكان الجواب لانها اهملت امر التعليم في المدارس الجامعة حتى انحط شأنها. فاخذت من ساعتها تجدد هذه المدارس وانفقت على تجديدها ثلاثة ملايين ومئتين وثمانين الف ليرة. وهي تنفق الآن على المدارس مليون ليرة كل سنة لانها رأت انها

(٢) هذا محل للنظر والاعتبار. فتأمل

لا تستطيع ان تناظر جرمانيا في القوة ما لم تجاريها في العلم والدولتان تعلمان الآن ان العلم مصدر الغنى والقوة

ثم قال ان سويسرا وهي بلاد ضيقة ولا فحم فيها ولا شيء من مواد الصناعة قد اصبحت في مقدمة البلدان الصناعية بواسطة مدرسة زوريك وهولندا وعدد سكانها نحو اربعة ملايين ودخلها السنوي نحو تسعة ملايين ليرة تنفق كل سنة على مدارسها الاربع الجامعة ١٤٦ الف ليرة وهذا هو سبب تقدمها وبعد ان شدد اللوم على الحكومة الانكليزية لقلة اهتمامها بمدارسها وذكر تقدم الصناعة بواسطة العلم ووجوب طلب العلم من حيث هو قال "انني افتتحت خطبتي بكلام امير شهير خاطبنا عن هذه الدكة منذ ست وعشرين سنة مبيناً لزوم العلم للبلاد ولكنه ليس اول من علم ذلك وشهد به فقد سبقه اليه الامام علي ابن ابي طالب بقوله

ما الفضل الا لاهل العلم انهم على الهدى لمن استهدى ادلاء

هذا والجمع البريطاني مقسوم الى فروع كثيرة ولكل فرع رئيس مستقل يخطب فيه خطبته السنوية ويظهر من خطب هؤلاء الرؤساء ان حالة العلم في بلاد الانكليز غير مرضية وان علماءها غير راضين عنها وانهم قد وطنوا النية على تنبيه الحكومة الى واجباتها لئلا تقصر بلادهم عن مجاراة بقية الممالك الاوربية. فان كان الانكليز يشكون من انحطاط العلوم في بلادهم وهم على ما نعهد من الثروة والمنعة ووفرة المصنوعات فما بالنا نحن الشرقيين نلهم السننا واقلامنا وقد صار العلم عندنا اثراً بعد عين. وان كانت الامة الانكليزية تخاف ان يحط شانها ويزول سلطانها لانها لا تنفق النفقات الطائلة على مدارسها كما تنفق جرمانيا وفرنسا فكيف نأمل نحن النجاح ومجاراة الامم الاوربية في ميدان الحياة وحال العلم عندنا معروف والمدارس في انحطاط

وهناك امر آخر استرسل الخطيب فيه واطال الكلام عليه وهو حقيقة التعليم. والظاهر من كلامه ان التعليم في المدارس الانكليزية منحط الدرجة غير وافٍ بالمقصود وذلك يفضي بالبلاد الى الدمار اذا لم تصلح حاله. فاذا نقول نحن واحوال التعليم عندنا على ادناها. على ان هم البشر كالنار فانها وان خبت يبقى منها قبس يضرم الغضا حتى يعلو في الآفاق سعيره. والشرق قد بقيت فيه بقية اذا نظر اولياء الامور اليها وعضدوها بالمال وتعهدوها بالتنشيط كما فعلت دولة فرنسا بعد الحرب الاخيرة نصرتنا الايام وبسمت في وجوهنا الليالي والا فاستعبادنا لامم المغرب امر محتوم لامناص منه الا اذا شاءت القدرة الفائقة مخالفة نواميسها نبنا والجري على غير سنتها المقررة